الفصل الأول

"عدوانية"

في إحدى ليالي الشتاء ذات الطقس شديد البرودة ارتفع صفير الرياح فأطلق الخوف داخل النفوس، وتساقط الغيث بغزارة وقوة فأخذت قطراته ترتطم بالسيارات، ونوافذ البيوت، وأتم البرق، وهزيم الرعد سيمفونية الشتاء الخالدة. وفي منطقة حي الزمالك أبى الليل أن ينجلي إلا بعد أن تصير تلك الليلة ليلة ليلاء فانقطع التيار الكهربائي فأطبق الظلام بأنيابه على ذلك الحي الراقي، وصارت الأرض مرتعاً للشياطين، ومن على شاكلتهم من الإنس يفسدون فيها كيفما يشاؤون، وكانت الطفلتان كوثر، ونادين اللتان في الرابعة عشر، والإثنى عشر من عمرهما نائمتان في غرفتهما الخاصة محتضنتان بعضهما البعض، وثماني شمعات موضوعة داخل شمعدانين يضيئون لهما الغرفة، وفجأة تحرك الشمعدانان وقذفا على السرير الذي تنام عليه الطفلتان فاشتعلت النيران في الغطاء الذي يلتف حول جسد الطفلتان وامتلأت الغرفة بالنيران والدخان ثم ظهر على الحائط خيالاً لطفل صغير لا يتعدى عمره العشرة أعوام.

******

بعد ذلك بخمسة أعوام..

هبط الدكتور محمود الغريب من سيارته، وقد كسى الغضب الشديد وجهه، ودلف إلى إحدى المدارس الإعدادية الثانوية، وسار بخطوات عصبية متجهاً إلى غرفة مدير المدرسة التي يدرس فيها ابنه أدهم التلميذ بالصف الثالث الإعدادي، والذي تكررت شكوى معلميه وزملائه منه بسبب أسلوبه العدائي مع الجميع دون استثناء، ومحمود الغريب هو صيدلي ناجح يمتلك صيدلية كبيرة في منطقة وسط البلد، وهو ذو لحية كثيفة، في بداية الخمسينات من عمره تقريباً.

جلس الدكتور محمود أمام مدير المدرسة البدين الأصلع، والذي بدت على وجهه علامات الغضب الشديد، ووقف الطفل أدهم جوار والده، وهو طفل قصير القامة لحد ما، وسيماً للغاية، ذو شعر أسود ناعم ينسدل على وجهه، يكاد يغطي حاجبيه فبدا ذو مظهراً بريئاً جميلاً لا تبدو عليه العدوانية أو الشر مطلقاً.

وقف مدير المدرسة وقال غاضباً: هذه هي المرة الثالثة التي تأتي فيها يا دكتور محمود لتقدم اعتذارك عن تصرفات ابنك، ورغم ذلك يعود ليصطنع المشاكل مع زملائه ومعلميه، وأنا لأجل خاطرك أتجاوز عن تلك التصرفات، ولكن أن تصل تصرفاته لأن يحطم نظارة معلمه فهذا كثيرولا يمكن تحمله.

قال محمود وهو يشعر بالخجل الشديد: في الواقع لست أدري ماذا أقول، ولكني أعتذرلك بشدة، وأرجو أن تجعلني ألتقي بذلك المعلم لأعتذرله.

قال مدير المدرسة: لقد تخطينا مرحلة الاعتذارات يا دكتور محمود. أنا مضطر أن أعطيك ملف ولدك في نهاية السنة الدراسية لتبحث له عن مدرسة أخرى.

انتابت الدكتور محمود حالة من الخجل الشديد لكنه لم يجد بداً من الحديث والدفاع عن ابنه فرفع رأسه المحنية، ونظر إلى المدير وقال له: من فضلك يا عبد الحميد بيه تمهل، وإعط لأدهم فرصة أخيرة. أنت تعلم أن مدرستكم هي أقرب مدرسة لمنطقتنا ولا يوجد غيرها بها فصول للمرحلتين الإعدادية والثانوية. أنا أعلم أن أدهم أخطأ ولذلك سيتم عقابه بشدة. أما بخصوص المعلم الذي حطم أدهم نظارته فسوف أذهب للإعتذار إليه لكن أرجوك لا داعي لقرار الفصل هذا.

قال المدير دون أن ينظر إلى الدكتور محمود: انتهى الموضوع يا دكتور محمود. لقد اتخذت إدارة المدرسة قرارها بفصل ولدك في نهاية الموسم الدراسي، وانتهى الأمر.

نظر محمود إلى أدهم بآسف بينما ظل الطفل أدهم ينظر إلى المدير بقسوة وغضب.

******

داخل شقتهما الفاخرة بحي الزمالك وقف الطفل أدهم يبكي بشدة أمام والده الذي أمسك في يده حزام بنطاله وظل يضربه به ضرباً مبرحاً، وصرخ أدهم بشدة فأتت إليهما نادية والدة أدهم المرأة الحسناء الفاتنة رشيقة القوام، والتي في منتصف الثلاثينات من عمرها لكنها تبدو لمن يراها كما لو

كانت في منتصف العشرينيات من عمرها لاهتمامها الزائد بجمالها الفاتن، وهي تشارك زوجها إدارة الصيدلية الكبيرة التي يمتلكاها في وسط البلد.

أمسكت نادية والدة أدهم يد زوجها الممسكة بالحزام وقالت منفعلة: ألن تنتهي من تلك المعاملة القاسية لأدهم يا محمود؟

قال محمود منفعلا: وكيف تريدين مني أن أعامله وقد حطم نظارة معلمه مما جعل الأستاذ عبد الحميد يقرر فصله.

قالت نادية منفعلة: الأستاذ عبد الحميد يضخم الأمور دائماً. من فضلك دع أدهم وأنا سأفهم منه ما حدث بالضبط، وسأذهب بنفسي غداً للأستاذ عبد الحميد لأتفاهم معه.

قال محمود بإستياء شديد: أنا لا أرى داعي لذهابك إلى الأستاذ عبد الحميد فهو مصر على فصل أدهم، وهو محق في ذلك. فما الذي يجبره على إبقاء مثل هذا الطالب المتنمر الغبي في مدرسته؟

قالت نادية منفعلة: من فضلك يا محمود لا توصم أدهم بتلك الصفات.

قال محمود: لست أدرى ما الذي حدث أبدل حال هذا الولد هكذا؟ مؤكد بسبب أفلام العنف والمصارعة التي يشاهدها. لقد أخطأت بموافقتك على وضع جهاز الكمبيوتر في غرفته.

نظرت نادية إلى ابنها وقالت له: أرأيت يا أدهوم كيف أغضبت تصرفاتك والدك؟ هيا اعتذر له، واخبره إنك لن تغضبه مرة أخرى.

نظر أدهم إلى والده ببراءة وقال: أعتذر لك يا أبي. لن أفعل ما يغضبك مرة أخرى.

قال محمود بحزم وجدية: حسناً. هيا ادخل توضأ لنصلي العصر.

وقف أدهم ساكناً وقد تجهم وجهه فصاح به والده:

_ لماذا تقف هكذا؟ هيا تحرك.

تحرك أدهم، وغادر والديه، وعلى وجهه علامات غضب شديدة.

******

في غرفة نومهما رقد محمود وزوجته نادية على الفراش، وتملك الحزن وجه محمود فقالت له نادية: لماذا تبدو حزيناً؟

قال محمود بحزن: لقد تذكرت كوثر ونادين ابنتاي الحبيبتان رحمهما الله وتذكرت أدبهما ورقتهما فكنا لا نكاد نسمع لهما حساً، وكانت الفتاتان محبوبتان من كل معلميهما بعكس هذا الولد الغبي.

امتعضت نادية، ونظرت إلى زوجها ثم قالت بحزن: أرجوك لا داع لتذكرني بتلك الحادثة المشئومة.

قال محمود بحزن عميق: لقد كان الحادث خطأ منا فلم يكن المفروض أن ننام قبل أن نتأكد من إطفاء الشموع ولكن للآسف نمنا وأحرقت الشموع الغرفة وكل شيء.

وانهار محمود في البكاء، وقالت نادية بحزن شديد: لقد اكتشف أدهم حبيبي الحريق، ولقد صدم صدمة قوية وهو يرى شقيقاته تحترقان.

قال محمود والدموع تنساب من عينيه: لقد كان عمره وقت ذاك عشرة أعوام، وبالفعل حزن على الفتاتان حزناً شديداً.

قالت نادية: أرجوك يا محمود كف عن ذكر هذا الموضوع، ومن فضلك اجعل معاملتك لأدهم أفضل من ذلك. اجعله يحبك يا محمود. أنا أخشى أن يكرهك الولد بسبب معاملتك له.

قال محمود محاولاً كسب ود زوجته: أنا أفعل ذلك لأصنع منه رجلاً محترماً ذو شأن يا نادية.

قالت ناديه بعصبية: ليس بهذا الأسلوب يا محمود. أنت دائماً تقسو على أدهم حتى في وجود الفتاتان الراحلتان كنت تعامله بقسوة وتعامل الفتاتان برفق ومودة.

نظر إليها محمود دون أن يتكلم ثم هبط أسفل الغطاء محاولاً النوم هرباً من ذلك الحديث الذي يعيد إليه ذكريات يجاهد بقوة لنسيانها.

******

في الليل اصطحب محمود ونادية أدهم إلى طبيب أمراض نفسية فأخبرهما الطبيب أن أدهم يحتاج فقط لمعاملة طيبة، ويحتاج إلى الاحتواء، وأن لا يتعاملا معه بعنف لأن ذلك هو ما آثر على شخصيته، وطلب منهما الطبيب أن يلعب أدهم لعبة رياضية يخرج بها طاقته، وبالفعل في اليوم التالي قامت نادية بإشراك أدهم في لعبة الكاراتيه بالنادي القريب من حي الزمالك، ولقد ذهبت إلى مدرسة أدهم لتقابل الأستاذ عبد الحميد مدير

المدرسة لتعتذر إليه، وتقدم تبرعاً مالياً إلى المدرسة لكن قوبل ذلك بالرفض، وأصر مدير المدرسة على قراره بفصل أدهم في نهاية العام الدراسي.

بعد ذلك بيومين وقف الدكتور محمود مع زوجته نادية مرتدياً جلباباً أبيض مستعداً لصلاة الجمعة، وأتى إليهما أدهم مرتدياً جلباباً أبيض هو الآخر، وعلى وجهه علامات غضب.

قال محمود بحدة: ما كل هذا التأخير؟ ألا تعلم أن اليوم هو الجمعة، وكان يجب علينا الذهاب للمسجد قبل صعود الإمام إلى المنبر؟

قال أدهم بغضب: أنا لا أريد أن اذهب للمسجد.

صعق محمود من كلام ابنه فقال منفعلاً: ما هذا الذي تقوله؟ أكفرت أم ماذا حل بك؟

صمت أدهم قليلاً ثم قال: الشيخ يتكلم كثيراً ويطول حديثه، وأنا أريد أن أنام.

ضرب محمود كفاً بكف وقال: ما هذا الكلام الفارغ. هيا نذهب للمسجد ثم نم بعد أن نأتي. هيا سر أمامي.

ثم استطرد محمود منفعلاً: هيا.. سار أدهم أمام أبيه متأففاً بينما وقفت نادية تنظر إليه بارتياب. نظرة تحمل العديد من الأسئلة.

بعد انتهاء صلاة الجمعة وقف محمود بجواره أدهم، ومعهما أحد أصدقاء محمود من المنطقة.

قال الصديق بحزن: أعلمت ما حدث للأستاذ عبد الحميد مدير المدرسة؟

قال محمود بقلق: ماذا حدث له؟

قال الصديق بحزن: لقد ذهب إليه ابنه بالأمس فوجده مقتولاً. لكن كيف لم تعلم وابن عمك كامل بيه مفتش المباحث هو الذي تولى تلك القضية.

بدت الدهشة على وجه محمود ثم قال بحزن: لا حول ولا قوة إلا بالله. لم أتحدث مع كامل منذ عدة أيام. ولكن من قتله؟ وكيف حدث ذلك؟

قال الصديق: لقد وجدوا الرجل مشنوقاً، ومعلقاً في حبل كحبل المشنقة.

قال محمود: أعوذ بالله، ولكن لماذا لا يكون قد انتحر ولم يقتل؟

قال الصديق: لا أعرف. أنت الذي ستعرف ذلك من ابن عمك كامل.

وبينما كان الرجل يتحدث كان أدهم يقف وعلى وجهه تجهماً شديداً.

****

عاد محمود وأدهم إلى شقتهما، وقص محمود على زوجته ما أخبره به صديقه عن مقتل مدير المدرسة فحزنت نادية حزناً شديداً، ودلف أدهم إلى حجرته، وأحضر أوراقاً بيضاء كثيرة، وألواناً خشبية، وأخذ يرسم أمه بدقة فائقة، ودخلت عليه والدته وفرحت حينما رأت ذلك وابتسمت ابتسامة واسعة وقالت: أتحبني يا أدهوم؟

قام أدهم باحتضان أمه وقال: طبعاً يا أمي أحبك بشدة.

قالت نادية: وبابا؟

صمت أدهم قليلاً ثم قال: بابا لا يحبني. لذلك أنا أيضاً لا أحبه.

أخذت تداعب شعره الناعم وقالت له: لا تقل ذلك يا أدهوم إنه يحبك ولكن لا يحسن التعبير عن ذلك، وأنت يجب أن تحبه فلا يوجد ابن يكره أباه.

قال أدهم: لا يا أمي إن نظراته لي مليئة بالكراهية ليس بها ذلك الحنان الذي أجده في عيناك عندما تنظرين لي، وأنا لن أحبه طالما يعاملني بهذه القسوة، وكأني لست ابنه.

ربتت على خده وهي متجهمة بينما استطرد هو قائلاً: لقد جعلني أشعر بالفعل أنه ليس أبي، وإنه شخص غريب عني.

قالت نادية: لا تقل ذلك يا أدهم. هو والدك ويحبك، ويريد أن يراك ناجحاً، ويجب عليك أنت أيضاً أن تحبه وتستمع إلى كلامه.

تركها أدهم، وسار نحو فراشه، وتدثر بالغطاء بينما أخذت نادية تنظر إليه وفي عينيها كلام كثير.. كثير للغاية.

****

غادرت نادية الشقة متجهة إلى الصيدلية بينما ظل أدهم داخل غرفته يشاهد أحد أفلام الرعب، ودلف إليه محمود وقال له بأسلوب جاف: ماذا تفعل يا ولد؟

قال أدهم ولم يرفع عيناه عن الشاشة: أشاهد فيلماً.

قال محمود بحدة: ولماذا لا تذاكر؟ أنسيت إنك في الصف الثالث الإعدادي، وينبغي أن تنجح بمجموع كبير؟

قال أدهم: ليس لي غرض للمذاكرة الآن. هل هناك أسئلة أخرى؟

امتعض محمود، وتمالك أعصابه وقال: إذن هيا لنتناول طعام الغداء.

قال أدهم دون أن ينظر إلى والده: لست جائعاً.

لاحظ محمود تركيز أدهم الشديد تجاه شاشة الحاسب الآلي فنظر إلى الشاشة فوجد مشهداً مخيفاً فقال منفعلاً: ألم أنهاك عن مشاهدة تلك الأفلام؟

سار محمود بعصبية نحو جهاز الحاسب الآلي وقام بإغلاقه.

نهض أدهم بعصبية من فوق المقعد الهزاز، ووقف ينظر إلى والده بغضب شديد دون أن يتكلم.

قال محمود بحزم: سأنقل هذا الكمبيوتر إلى الصالة ما دمت مصراً على عدم إطاعتي.

استمر أدهم في النظر إلى والده بغضب شديد فلاحظ محمود ذلك فاستطرد كلامه قائلاً: لماذا تنظر لي هكذا يا ولد؟ لست أدري إلى متى ستظل أبلهاً هكذا؟

ظل أدهم صامتاً لا يرد فاستطرد محمود كلامه قائلاً بحدة: هيا سر أمامي لنذهب لتناول الطعام.

داخل الصيدلية أمسكت نادية بهاتفها المحمول، وقامت بالإتصال بأدهم لتطمئن عليه لكنه لم يجيب عليها فقامت بالإتصال على هاتف محمود لكنه أيضاً لم يجيبها فبدا عليها القلق والتوتر فقال لها أحد الأطباء الذي يعمل بالصيدلية: تبدين قلقة يا دكتورة.

قالت نادية: لست أدري لماذا لا يجيب أدهم ومحمود على اتصالي بهما رغم إني كررت الإتصال بهما عدة مرات.

قال الصيدلي: لعل الأمر خيراً يا دكتور.

قالت نادية: أنا أشعر بالقلق سأذهب إلى البيت لأطمئن.

قال الصيدلي: وكيف ستقودين سيارتك وأنت في هذه الحالة. سأذهب معك، وسيتولى الدكتور عماد والدكتورة نهلة الصيدلية.

قالت نادية: حسناً يا دكتور شريف. بالفعل أنا لا أعرف كيف سأقود السيارة وأنا متوترة هكذا.

ووصلت الدكتورة نادية إلى المبنى الذي تقيم فيه، واستعملت المصعد الكهربائي إلى الدور الذي به الشقة الخاصة بها، وأسرعت في سيرها يتبعها شريف، ولشد ما كانت دهشتها عندما وجدت باب الشقة مفتوحاً على مصراعيه، وما أن دلفت إلى الشقة حتى صدرت منها صرخة عالية فعلى الأرض كان أدهم ملقياً فاقد الوعي، وعلى شعره، وعلى الأرض بقع من الدماء، وجثت بركبتيها جواره وأمسكت برأسه تحاول إفاقته، والدكتور شريف ينظر إليهما مترقباً، وبدأ أدهم يعود إليه وعيه فتحرك الدكتور شريف داخل

الشقة، و فجأة انتفض جسده بشدة فلقد وجد الدكتور محمود ملقياً على الأرض بجوار مائدة الطعام الكبيرة مذبوحاً.

******

جلست نادية شبه منهارة تبك بشدة، وجلس جوارها على أحد مقاعد غرفة الإستقبال المهندس توفيق عم أدهم الذي كان يبكي بكاءً حاراً، في وجود عدد من رجال الشرطة، والبحث الجنائي، وكامل مفتش المباحث الذي تخطى الخامسة والأربعين من عمره، ورغم ذلك مازال محتفظاً بشبابه ووسامته، وهو أيضاً ابن عم الدكتور محمود.

وقف كامل مفتش المباحث محتضناً أدهم الذي وقف يبكي وقد ربطت رأسه بضمادة كبيرة، وأخذ أدهم يقص عليهم ما حدث وقال: بعد أن جلست أنا ووالدي لنتناول الطعام سمعنا رنين جرس الباب فذهبت لأفتح باب الشقة ففوجئت بشخصٍ ملثماً يرتدي قفازات سوداء كمم فمي بيده ثم دفعني بقوة نحو الجدار فارتطمت رأسي به، ولم أشعر بأي شيء بعد ذلك.

وواصل أدهم البكاء فقال كامل بحزن: لا تحزن يا أدهم فسنقبض على ذلك المجرم في أسرع وقت، وتمالكي نفسك يا دكتورة نادية. تمالك نفسك يا توفيق، والحمد لله أن أدهم خرج حياً من هذا الموضوع.

قال المهندس توفيق بحزن وانفعال: أنت لابد أن تقبض على ذلك المجرم يا كامل في أسرع وقت. لابد أن تقبض على من قتل ابن عمك، وأخي الغالي ومثّل في جثته هكذا.

قال كامل: اطمئن يا باشمهندس فمهما كان ذلك المجرم ذكياً وحويطا سوف أعرفه، ولن يهدأ لي بال إلا بعد أن أقبض عليه، ويتم الحكم عليه بالإعدام.

****